قصة "صديقي الحقيقي" في ضوء أدب القصة الطفولية

دكتور / عمر صالح شرف الدين
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

من الملاحظ أن مباحث أدب الطفل تكاد تكون برسم التلاشي في الأقسام الأدبية من كلياتنا النظرية . وتأسيسا على أهمية أن يلعب الأدب دورا تنمويا ، فلا ينحصر على فئة معينة أو جنس معين ، فان الطفل — بداهة — ينبغي أن يأخذ حقه من الاهتمام الأدبي ، وأن يحصل — تبعا لذلك — على نصيبه من الدراسات حول أدبه .

من هذا المنطلق أقدم هذه الصفحات في مجال أدب الطفل ، راجيا أن تؤشر ضرورة التأكيد على هذا الجانب ، وأن تحفز التدريسيين على أن يمنحوا الطفولة جهودهم ، ذلك أن مسؤولية تنشئة الأجيال — كما يقول وزير التعليم العالي الأسبق(١) من مسؤوليات كل أجهزتنا ، فمهمة التربية لا يمكن أن تتحملها وزارة بعينها أو مؤسسة بذاتها ، بل هي واجب الجميع : مجالس ، ومؤسسات ، ووزارات ، مدارس ومعاهد وجامعات .

---

(١) الدكتور محمد حافظ غانم في مقال له تحت عنوان : « عبدالتواب يوسف والثقافة الدينية للطفل العربي المسلم » نشر في كتاب : عبدالتواب يوسف وأدب الطفل العربي مع قائمة ببليوجرافيا لانتاجه الفكري .. دراسات في أدب الطفولة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ ص٣٢ .

انها رسالة نحملها ، ويجب أن يتعاون الجميع على أدائهـا على خير وجه يرضى الله ورسـوله .

وفى مجالنا التخصصى بالذات يتفحص أحد الباحثين فى ثنايـا استعراضه لأهـم الثغرات والمشكلات والأمراض التى نعانى منهـا وسائل اتصال الأطفال — النظرة المتخلفة لأدب الأطفال ، حيث لـم يعتمد حتى الآن كفرع رئيسى من فـروع الأدب الأخرى فى الجامعات العربية الا فى بعض الجامعات التى لا يزيـد عـددها — فى أحسن تقدير — على أصـابع اليد الواحدة(٢) .

وعنـوان بحثنا يقودنا الى محاولة التوفر على قصـة بعينها من قصص الأطفال فى ضوء معايير القصة المقدمة للطفل ، بوصفها لونا من ألوان أدب الأطفال — فحتم ، اذن ، أن يكون التصميم البحثى الأمثل هو أن نلملم أشعة ضوء حول أدب القصة الطفولية ، لتكون بمثابـة المرآة التى تبتدى فيها قصتنا ايجابـا وسلبا .

وبداية فانى أود أن ألفت الانتباه الى أن الكتابة الى الأطفـال — بعامة — ينبغى أن تتأطر داخل خاصيات ثلاث رئيسة(٣) : خاصيات تربوية تستقى من قواعد التربية السليمة وأصول علم نفس الأطفال ،

---

(٢) تحضير الطفل العربى للعام ٢٠٠٠ دراسة د. محمد عماد زكى . مسابقة د. سعاد الصباح للابداع الفكرى بين الشباب العربى — الهيئة المصرية العامة للكتاب — منتدى الفكر العربى — عمان ١٩٩٠م ص١٣٨ .

(٣) راجع : فن الكتابة للأطفال لأحمد نجيب . دراسات فى أدب الأطفال (١) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر فرع مصر ١٩٦٨ ص ٢٠—٢٧ . وللمزيد حول الخاصيات انظر ص ٣٠—٧ .

فكاتب الأطفال هو ـ بالدرجة الأولى مرب ، وخاصيات فنية عامة تلتمس فى مراعاة الأصول الفنية للنتاج الادبى ، قصة كان أو مسرحية أو أغنية أو أية صورة فنية أخرى ... وهنا اضع يدى فى يد من قال ، انه ينبغى أن نقف من نتاج أدب الأطفال ، الموقف الذى نقفه من أدب الكبار حين نوضع أمام المقاييس العامة للأدب(٤) بعبارة أخرى فان نتاج أدب الأطفال يجب أن يواجه المستويات نفسها من النقد ، تلك التى يواجهها أدب الكبار . وخاصيات فنية خاصة ، تتجسد فى وعى الكاتب بنوع (الوسيط) الذى ينقل الأدب الى الأطفال وامكاناته الخاصة سواء أكان هذا الوسيط : كتابا ، أو مسرحا أو وسيلة من وسائل الاعلام ، أو اسطوانة ، أو فيلما سينمائيا ، أو جريدة يومية ، أو مجلة أسبوعية ... أو شيئا آخر .

هذا يعنى أن هناك تطابقا بين أدب الكبار وأدب الصغار ، وان كان هناك تفاوت بينهما ، فيما نقرره الضوابط التى يخضع لها أدب الأطفال ـ من حاجات الطفل ، وقدراته ، ومستوى نموه بصورة أساسية(٥) .

---

(٤) انظر : طرق تعليم اللغة العربية (٢) للدكاترة . فتحى على يونس . محمود كامل الناقه ، رشدى أحمد طعيمة برنامج تأهيل معلمى المرحلة الابتدائية للمستوى الجامعى ١٩٨٨/٨٧م ص٣٦ . وراجع مصطلح « أدب الأطفال » مقال للأستاذ محمد أنقار ـ المغرب ، نشر فى ملحق الثقافة والمعرفة بجريدة الندوة . السعودية بتاريخ ١١ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ .

(٥) انظر أدب الأطفال فلسفته ، فنونه . وسائطه للدكتور هادى نعمان الهيتى . سلسلة الألف كتاب الثانى ٣٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة . دار الشؤون الثقافية العامة بغداد (بدون) ص٩ـ٦٨ .

وعلى ذلك فـان القصة الموجهة الى الصـغار لا يتيسر لهـا أن تغفل الأصول أو المقومات أو العناصر التى تقوم عليها القصة بوصفها عمـلا فنيـا •

ان أهم هذه العناصر فيما هو معروف فى عالم القصة تتجوهر فى : الحبكة ، والشخصية ، والبيئة أو الجو ، والقيم(٦) •

أما عن السمات المميزة للقصة الطفولية من خلال تلك العنـاصر الفنية ، فاننا سنحاول تلخيص خصائصها فيما يلى :

لكى تتوفر حبكة منسوجة بعناية ومهارة تخدم الأطفال فانه يجب مراعاة الملاحظات الآتية(٧) :

١ ــ أن ترتبط أحداث القصـة وشخصياتها •

٢ ــ أن تتضمن القصة تخطيطا للأحداث •

٣ ــ أن تكون الأحداث مناسبة للموضوع الأساسى الـذى يقوم عليه مشروع القصـة •

٤ ــ الحبكة الفنية هى التى تكون قابلة للتصديق ، لا أن تكـون قائمة على المصادفات والحين والخدع والمعجزات ، كما يجب أن تكون جديدة ، غير مستهلكة أو تافهة أو غير معقولة •

---

(٦) انظر : فن القصة للدكتور محمد يوسف نجم • الفنون الأدبية ٢٠٠ دار الثقافة بيروت ــ لبنان (بدون) ص٦٣ وما بعدها • وللمزيد ، راجع : القصة وكيف نكتبها لمصطفى هيكل ، مطبعة التوكل بشارع الخليج المصرى (بدون) وفن كتابة القصة لحسين القبانى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر • الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون) •

(٧) انظر : فى أدب الأطفال للدكتور على الحديدى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ١٩٨٩م ص١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ •

٥ ــ قصة الطفل الصغير ، قد تكون قصة استطرادية ذات أحداث متعددة فيها بعض الشواهد القليلة الدالة على السبب والغاية .

٦ ــ الحبكة الجيدة هى التى تتطور فيها العقدة بالصراع أو بالتناقض أو بالتكرار .

٧ ــ قمة الحدث الدرامى فى قصة الأطفال الجيدة ، هى التى تتطور تطورا طبيعيا حتى تصل الى النهاية ويسهل على القارىء متابعتها والتعرف عليها .

٨ ــ ليس لدى الأطفال قوة الادراك الكافى ، كى يتابع أكثر من عقدة فى القصة ، أو يفهم القصص المركبة .

٩ ــ بناء القصة يعتمد على وضوح المؤلف فى عرض الأحداث .

١٠ ــ لكل عمل قصصى نظام معين ، تنتظم فيه الأحداث ، وهو الذى يميز حبكة عن أخرى .

أما عن الشخصيات فانها تجسد فى القصة المواقف والأفكار ، بشكل يجعل الأطفال يتخذون الموقف العاطفى ازاءها ، تعلقا أو نفورا أو عطفا ، ويصل الأمر بالأطفال الى التقمص الوجدانى مع الأبطال ؛ فيحزنون لحزنهم ويفرحون لفرحهم(٨) .

وبالنسبة الى البيئة أو الجو فان قصص الصغار تختلف عن قصص الكبار من زوايا عدة ، فالطفل فى سنينه الأولى ، ربما لا يكون لديه تفهم كامل واضح للزمان ، وان كان ادراكه للمكان قد

---

(٨) انظر : ثقافة الأطفال للدكتور هادى نعمان الهيتى عالم المعرفة (١٢٣) رجب ١٤٠٨هـ ــ مارس (آذار) ١٩٨٨م ص١٨٣ .

يكون أوضح من الزمان ، ولهذا نرى رواة قصص الأطفال يقولون : « كان ياما كان .. في سالف العصر والآوان .. ما يحلو الكلام الا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام » . وهو تعبير يعنى الماضى دون تحديد دقيق لهويه ذلك الماضى ، لكن الطفل يستطيع أن يميز الليل والنهار ، ثم يتدرج ويعرف أمس وغدا ، ويظل يصعد سلم التدرج حتى يلم بأيام الأسبوع ، وتبقى العصور السحيقة أمرا بالغ الصعوبة ، وخاصة اذا كانت القصة مشتملة على تميز تلك العصور بسمات خاصة وطبائع معايرة وقيم مختلفة كثيرا عن قيمنا المعاصرة .

كما يستطيع الطفل أن يتصور المكان « فوق الشجرة » — مثلا — أو « تحتها » ، « وفى الحقل » أو « فى المنزل » ، وهى أمكنة بسيطة يعايشها ، وعندما ينتقل به الى جانب قمم الجبال والبحار والسندباد فى القصص فان الأمر يحتاج الى خبرات أوسع وسن عقلى انضج ..

لكن فى مراحل العمر المختلفة يصبح الطفل أشد جذبا الى « القصص الواقعى » ويقل اهتمامه بالقصص الخيالى والخرافى والأسطورى ، وفى هذه المرحله الواقعية يدرك الطفل بداهة أن الأحداث التى تجرى فى الحياة لابد وأن تقع فى مكان معين وزمان بذاته ، وهى لذلك سترتبط بظروف وعادات ومبادىء خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما ، والارتباط بكل ذلك ضرورة لحيوية القصة ، لأنه يمثل البطانة النفسية لها ... ويحلو لبعض الكتاب أن يقدموا قصص الحيوانات دونما تحديد صفة مكانية وزمانية ، هادفين فى ذلك الى ابراز المغزى أو العبرة أساسا ، وهو أمر يمكن التغاضى عنه فى المراحل الأولى من عمر الطفل ، لكن كلما كان الالتزام

بالبيئة الطبيعية أكثر مما كان المحمل . ان الحقائق الطبيعية يجب أن تراعى ، حتى لا نخلط الصور الخيالية في ذهن الطفل ويصل الى نتائج ليست متفقة مع الواقع(٩) .

وعن أسلوب القصة فانه يؤلف بناء فنيا يعبر عن فكرة القصة وحوادثها وشخصياتها ـ تعبيرا واضحا وقويا وجميلا ، حيث يتمثل الوضوح في ملاءمة الألفاظ والتراكيب لمستوى الطفل اللغوى، وفى التعبير الدقيق عن المعانى . ويتمثل القوة فى قدرة الأسلوب على ايقاظ حواس الطفل واثارته وجذبه كى يندمج بالقصة عن طريق نقل انفعالات الكاتب فى ثنايا عمله القصصى ، وتكوين الصور الحسية والذهنية المناسبة .

ويتمثل جمال الأسلوب فى سريانه فى توافق نغمى وتآلف صوتى واستواء موسيقى (١٠)

وعلى صعيد القيم فان القصة لون أدبى ماتع ، يحببه الطفل ويألفه قبل دخوله المدرسة ويحاول دوما الاستزادة فيه ، ولهذا السبب كانت القصص وسيلة تربوية ناجحة ، تبعا لقدرتها على غرس القيم من خلال المتعة التى ينشدها الطفل . والقيم من حيث

---

(٩) انظر : أدب الأطفال فى ضوء الاسلام للدكتور نجيب الكيلانى مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ص٦٨ وما بعدها ولمزيد من التفصيل حول القصص المناسب للأطفال فى كل عمر من أعمارهم المختلفة راجع : القصة فى أدب الأطفال لأحمد نجيب ، دراسات فى أدب الأطفال ٣ جمعية المكتبات المدرسية بالقاهرة ١٩٨٢م ص ١٧٥ ـ ١٨٧ .

(١٠) راجع : ثقافة الأطفال ـ مرجع سابق ـ ص١٨٣ .

هى نص مكتوب فى القصة أو مستنبط منها قد تكون ايجابية فتدعو لما هو مرغوب فيه ، أو تكون سلبية تدعو لما هو مرغوب عنه • والأمر فى كون القيمة صريحة أو ضمنية ، ايجابية أو سلبية ، عائد الى القاص نفسه ووعيه لعمله ولأثر القيم فى سلوك الطفل القارىء(١١) •

ونتعرف الآن — فى ضوء ما عرفنا من خصائص مميزة للقصة الطفولية روح الكتابة القصصية للأطفال من خلال قصة « صديقى الحقيقى »(١٢) للكاتب : عبد التواب يوسف(١٣) •

---

(١١) انظر : مشكلات قصص الأطفال فى سورية لسمر روحى الفيصل ، منشورات الكتاب العربى ، دمشق ١٩٨١ ص٩ وما بعدها •

(١٢) القاهرة : دار الشعب (بدون) — (قصص عربية ، من السودان) ، رسوم اللباد •

(١٣) كاتب ودارس لأدب الأطفال ، يحوثه ودراساته عن أدب الأطفال وثقافتهم تجاوزت المائة ، وكتبه قصصية وغير قصصية زادت على المائتين • كتب للاذاعة آلاف البرامج والتمثليات للأطفال ، كما شارك فى الكتابة للتليفزيون ، وأيضا لمسرح الطفل منذ الستينيات • حصل على جائزة الدولة فى أدب الأطفال عام ١٩٧٥م عن كتابه (قصص عربية) وحصل على جائزة الدولة فى ثقافة الأطفال عام ١٩٨١م عن كتابه (اللقاء) ، انظر : الندوة الدولية لكتاب الطفل ع ٢ القاهرة فى ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٧هـ ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦م ص٥ ولمزيد من التفصيل حول شخصيته وأعماله راجع : عبدالتواب يوسف وأدب الطفل العربى — مرجع سابق — ص٨٤ وما بعدها ، وتضيف ، لقد حاز كاتبنا جائزة الملك فيصل بالاشتراك مع الأستاذ / أحمد نجيب فى أدب الاطفال لعام ١٩٩١م • انظر جريدة البلاد السعودية ع ٩٨٥٢ السبت ٣ ذو الحجة ١٤١١هـ الموافق ١٥ يونية ١٩٩١م •

تقـــول القصـــة :

كان لأحد الملوك ابن ذكى ، وكانت أسعد لحظات الملك ، تلك التى يجلس فيها مع ابنه ، يحكى له عن بطولات جنده وشجاعتهم ، وتمضى الساعات والابن جالس ، وقد فتح أذنيه ، وعينيه ، ليستوعب كلمـــات أبيه وقصصه التى تحكى عن البطولة .

وكان سعيد الصغير يضيق كثيرا ، اذا قطع عليه أحـــد هـــذه الجلسات الممتعة ، ولكن أعباء كثيرة كانت على والده ، وكان لابد أن يقابل ضباطه وجنوده ورجـــاله .

وكان الملك ينصح ابنه ويقول :

ـ « يجب أن يكـــون لك أصـــدقاؤك » .

وسأله ســـعيد يوما :

ـ « كيف أختار صديقى الحقيقى يا أبى ؟ » .

قـــال أبـــوه :

ـ « عليك أن تختبر هذا الذى تصادقه ، وهناك اختبار طريف ، ادع هذا الذى تعتقـــد أنه يصلح صديقا الى طعام الافطار ، هنا فى بيتنا ، وأجـــل تقديم الطعام اليه ، وخلال ذلك اسلق ثلاث بيضات ، ثم قدمها لضيفك لترى كيف يتصرف » .

وبدأ الابن يجرب هذا الاختبار الطريف .. كان بعض من يدعوهم للافطار يضيق بالانتظار ، فيهتف صارخا مطالبا بالطعـــام .. البعض الآخر لا يصبر ، بل يغـــادر البيت فى غيظ لأنهم لم يحضروا الافطار ، والاخرون تصرفوا بلا ذوق ولا أدب قبل أن يحمل اليهم صاحب البيت البيضـــات الثلاث . .

وكان من بين أصحاب ابن الملك سعيد ، صديقه « عادل » ابن الوزير ، وكان يشعر أنه ولد مخلص طيب ، ورغب أن يمتحنه ، فدعاه الى طعام الافطار ، وعندما جاء الطبق وفيه البيضات الثلاث ونظر اليها (عادل) فى دهشة وقال :

— « هل هذا هو كل افطارنا ؟! انها لا تكفينى وحدى » .

وعندما غادر البيت ، وترك الطعام ، لم يأسف عليه سعيد ، لأنه عاب الطعام ، وأثبت أنه غير قنوع ، ولا يستحق أن يكون صاحبا لابن الملك ..

وجاء الدور على ابن كبير التجار :

كان ابن كبير التجار فرحا بدعوة ابن الملك له لكى يتناول طعام الافطار ، لذلك لم يأكل عشاءه فى الليلة السابقة ، وفى الصباح الباكر ذهب الى سعيد وانتظر . وطال الانتظار ، وجاع ابن كبير التجار ، وأخيرا هم ابيه ابن الملك الطبق ، وفيه البيضات الثلاث ، وتركه لحظة تصيره ليأتى فيها بالخبز ، وعاد ليجده قد أتى على البيضات الثلاث التهمها فى لمح البصر ، ولم يبق منها شىء لصديقه ابن الملك لحظة قصيرة ليأتى فيها بالخبز ، وعاد ليجده قد أتى على البيضات

— « هل اكلت كل البيض ؟ » .

قال ابن التاجر :

— « كل البيض ! انه ثلاث لا أكثر » .

قال سعيد :

— « ليس هناك غيرها طعام افطار » .

قال ابن التاجر الكبير فى دهشة :

— « أهذا معقول ! » .

ضاق ابن الملك بكل الأولاد من حوله ، أنهم لا يستحقون أن يعطيهم كل حبه ووده ، لذلك انصرف عنهم الى البحث عن الصديق فى مكان آخر .

بدأ سعيد ينطلق الى الحقول والغابات لعله يلتقى بواحد يكون هو صديقه الحقيقى : وتعرف ذات يوم الى ولد يرتدى ملابس بسيطة ، وتبدو عليه علامات الفقر وعلامات الذكاء أيضا ، عرف أنه ابن الحطاب ، وعندما سأله سعيد أن يلعب معه ويصادقه رفض وقال :

— « لا أظن أننا نصلح أصدقاء ، فما أنا الا ولد مسكين فقير ، وأنت ابن الملك » .

قال له سعيد .

— « لماذا لا نجرب ؟ » .

قال ابن الحطاب .

— « لا مانع عندى ، بشرط أن تفهم أننا متساويان كأصدقاء أوفياء فى كل شىء .

واتفق سعيد على شرط ابن الحطاب ، وبدأ يلعب معه ، خرجا معا الى الصيد ، وتعلم منه سعيد كيف يستخدم القوس ، وكيف يقاتل الحيوانات المفترسة ، وكيف يتسلق أشجار الغابة ، وقضى معه وقتا جميلا رائعا ، وأحس سعيد أنه مع انسان ذكى ، طيب ، وقلبه كبير وعاد الى المدينة مسرورا .

والتقى ابن الملك مع ابن الحطاب فى اليوم التالى ، وسارع ابن الحطاب يدعوه الى الافطار معه فى كوخه ، قبل أن يدعوه سعيد الى بيته ليختبره كما اختبر زملاءه ، وفى الكوخ تناولا معا طعام الافطار

البسيط ، الذي يتكون من الخبز والملح ، وقد أكل سعيد بشهية ، وكاد يطلب المزيد لولا أنه خشي أن يكون ابن الخطاب قد دعاه لهذا الافطار اختبارا له ، ويرى ان كان يصلح صديقا له أم لا ، لذلك اكتفى سعيد بما قدم اليه ، وحمد الله ، وانطلقا معا لمغامرة جديدة ، يتعلم ابن الملك فيها مفيدا لم يعرفه من قبل ، واستمتعا بوقت طيب ، واتفقا على وعد من ابن الخطاب ، بأن يزور صاحبه فى قصره فى صباح الغد ، لكى يتناولا طعام الافطار .

وعلى مائدة الافطار فى ذلك الصباح كان هناك الطبق وفيه البيضات الثلاث ، وامتدت يد ابن الخطاب لواحدة منها فشرها لنفسه ، بينما كان ابن الملك يقشر بيضته ويأكلها ، وأخذ ابن الخطاب البيضة الثالثة ، وأنظر سعيد ليرى ماذا سيصنع ابن الخطاب بها ، هل سيأخذها لنفسه أم يهديها اليه ؟ ولكنه تصرف بطريقة أخرى بسيطة ، أخذ السكين من على المائدة ، وقطع بها البيضة الى جزءين متساويين ، أخذ لنفسه نصفا ، وأعطى الآخر لابن الملك ، الذى قام يعانقه ويهتف قائلا :

ـ « أنت صديقى الحقيقى » .

وكبر الولدان ، وكبرت الصداقة بينهما ، وبعد سنوات طويلة ، تولى سعيد حكم البلاد ، وكان أول وزير يختاره ، هو صديق طفولته لولا ابن الخطاب .. فكان به خير صديق وخير ناصح أمين ..

وبانتهاء القصة يسهل على الباحث ـ بالنظر الى الأوراق المتقدمة ـ أن يلحظ ما يلى :

١ ـ تعددت الأحداث دون تشعيب ، وتطورت فى مسار شيق ،

لقد جاءت البداية فستويسات التأرجح فالجمل المسعد ، وفق نسيج رشيق من الروابط المناسبة للأطفال ..

٢ ــ نجح الكاتب فى رسم شخصياته الى مدى بعيد ، ويتأكد هذا النجاح عبر الفروق التي تبدت ــ بوضوح ــ بين شخوص القصة ، فمثلا معالم شخصية ابن الحطاب احد أبطال القصة برزت بقوة من خلال تفرده بحياة خصبة مليئة بالتجارب والخبرات من مثل استخدام القوس ، ومقاتلة الحيوانات المفترسة ، وتسلق أشجار الغابة .. من خلال مظهر بسيط مدعوم بعزة نفس وطهارة قلب ، ورجاحة عقل لقد تدرج ــ دونما خجل ــ فى ارتياده المتواضع «الخبز والملح» الى الأمير ، واشترط أن تمحو الصداقة الحلقة الفوارق بينهما ، ليعلن مبدأ المساواة على طريق العدالة والانصاف ، وتصرف بفطنة حين اقتسم البيضة الثالثة ، نصفا لكل منهما . فطبيعى ــ اذن ــ أن يكون الحطاب ــ وهذه أبعاد شخصيته ــ الصديق الحقيقي الوفى الصادق المطلوب ، وليصبح وزيرا عندما آل الملك الى صديقه الأمير « سعيد » .

٣ ــ تجاهلت القصة البيئة أو الجو ، فلم يتحدد الزمان ولا المكان ..

ربما تكون القصة قد حدثت قديما ، ربما تكون القصة اعتمدت ــ أساسا ــ الحكمة والمثل مما يخلع عليها السمة العامة بغض النظر عن المكان والزمان ربما ... ربما ونرجح أن الكاتب قد جعل من القصص الشعبي مجرد مادة « خام » أعاد صياغتها بما تتناسب مع القيم التربوية والحاجات النفسية للأطفال الذين يكتب لهم ، ومن أهم هذه الحاجات ، ألا يجازى الجهد الناجح بالنهاية السيئة ، وألا

يصاب بالاحباط وهو يمشى دهرا فى مناكب الحياة ، بلحثا عن الجانب المشرق فيها لتصبح أكثر انسانية(١٤) .

ومهما يكن من شيء فان تحديد الزمان والمكان — لا شك — فى أنه يضيف جديدا الى القارىء الطفل ونحن نعلم أن مما تؤكد عليه مضمونات أدب الأطفال ، ازدياد معارفهم ومعلوماتهم ، فألوان أدب الأطفال لابد تشتمل على كثير من المعلومات والمعارف والخبرات والمشكلات ، تلك التي نجد طريقها الى أذهانهم ، اذا ما أحسن تحريك عواطفهم وانفعالاتهم(١٥) .

٤ — وبالنظر الى الاسلوب فان السرد كان حلوا سلسا ، والحوار جاء قصيرا معبرا وكلاهما تعطر بمدلول الصداقة ، هذا الشعور الرائع بالحب والعناية والحرص بشكل صادق وحقيقى يسعد النفس ويدفع الانسان الى النجاح(١٦) ...

وما أجمل اشارته الى « الخبز والملح » وهو يؤسس للصداقة .. للمواخاة .. للألفة .. للعشرة — لصحبة — معنى ، فذلك مما قد سار بين الناس واشتهر عند العام والخاص .

---

(١٤) انظر : « من كتابة قصة الطفل عند كامل كيلانى » ليعقوب الشاروني ، بحث نشر فى ثقافة الطفل ع ٣ لسنة ١٩٨٦ ، المركز القومى لثقافة الطفل — وزارة الثقافة مصر ص ٩ — ٢٧ .

(١٥) أدب الأطفال للدكتور هادى نعمان الهيتي — مرجع سابق — ص٩٤ .

(١٦) لمزيد من التفصيل حول هذه المعانى ، راجع : الصداقة والصديق لأبى حيان التوحيدى ، شرح وتعليق على متولى صلاح ، مكتبة الآداب ومطبعتها (بدون) .

ونرى بساطة ملحوظة فى المفردات وفى التراكيب وان كنا نحس بأن هناك كلمات قد تغمض معانيها على الأطفال من مثل : يستوعب أعباء .. لكن قد يكون هذا صوابا — الى حد ما — اذا علمنا أن للأطفال الى جانب قاموسهم اللغوى — قاموسا ادراكيا ، وهذا الأخير يعنى قدره الاطفال على فهم الكلمات وتعبيرات من خارج قاموسهم اللغوى الذى يتحدثون به ، ولكن هذا لا يبرر لنا الخروج على المدى الذى يرسم قدرات الأطفال على الفهم(١٧) .

يشير بعض الباحثين الى أنه يمكن استعمال الكلمات الجديدة بشرط يقول : انه لا مانع من زيادة الكلمات الجديدة على أن تكون قليلة ومكررة(١٨) .

٥ — واضح أن القصة تكشف عن بعض المعانى الانسانيه النبيلة والمبادىء الاسلامية الرفيعة التى رصدها صاحب كتاب « أدب الأطفال فى ضوء الاسلام »(١٩) يقول : « نهى الاسلام عن صحبة السوء ، وأمر باختيار الصديق الصالح النافع المفيد ، واعتبر صديق السوء (كنافخ الكير) والصديق الصالح « كبائع المسك » كما جاء فى الحديث المشهور للنبى ﷺ ، ووضع الاسلام للصديق الأمثل مواصفات عدة وردت فى الكثير من الآثار الاسلامية ، كأن يكون ناصحا أمينا ، ويعين على طاعة الله ، ويصدق فى قوله ،

---

(١٧) أدب الأطفال للدكتور هادى نعمان الهيتى — مرجع سابق — ص١٠٢ .

(١٨) أدب الأطفال دراسة وتطبيق لعبد الفتاح (ابو معال) دار الشروق للنشر والتوزيع الأردن . عمان الطبعة الأولى ١٩٨٤ ص ٩٨ .

(١٩) للدكتور نجيب الكيلانى — مرجع سابق — ص١٧٤ ، ١٧٥ .

ويبر فى عمله ، ولا يوقع بالفساد بين الناس ، وأن يكون مثلا يحتذى فى الامانة والوفاء والالتزام بأوامر الله ونواهيه ، وقد كان ابن الخطاب نموذجا رائعا فى الصدق والنظافة (والمؤمن كيس فطن) وفى النشاط والعمل ، وفى الاحساس والروية ، وفى اكتساب المهارات دونما عنجهية أو غرور أو تكاسل أو رعونة ، وهو بالمقاييس الاسلامية صديق طيب .. لكن يبقى شىء .. كان يستطيع الكاتب أن يشير من طرف خفى الى سمة اسلامية تتعلق بناحية العبادات .. نحن لا نطلب من الكاتب أن يتحول الى الوعظ المباشر ، لكنه كان يكفيه أن يضيف ولو عبارة واحدة تقول — مثلا — « فلنؤد صلاتنا ايها الأمير .. » وبذلك يمكن أن نقول بأن شخصية الصديق الحقيقى — ابن الخطاب — الذى سيصبح وزيرا فيما بعد ، نقول أن هذه الشخصية قد اكتملت ملامحها اسلاميا ، وأصبحت شاملة لأهم الصفات المثالية » .

٦ — يربط المؤلف قصته بالواقع من غير أن يقصد على الطفل استمتاعه بخيال الطفولة الجميل فقد استطاع الكاتب أن يترسم حدود الخيال فى قصص الأطفال التى تحدث عنها بعض الباحثين مؤكدا على تنقيتها من الشوائب والاحتفاظ بالتوازن بين طرفى المعادلة الحساسة بين الخيال الواقع ، وأن يكون الخيال أوضح من أن يختلط بالحقيقة(٢٠) .

ويحلو لى فى هذا المقام أن أنقل وجهة نظر القاص حول هذه القضية يقول : ينادى البعض بألا نخاطب الطفل من أعلى ، خاصة فى

(٢٠) القصة فى أدب الأطفال لأحمد نجيب — مرجع سابق — ص١٩٢

مجال الخيال ، لأنه يسبقنا ويتفوق علينا فى هذا الميدان بالذات ، وهنا فارق بين الخيال من جانب وبين الكذب وعدم الصدق من جانب ..

والأطفال يحبون سماع الحكايات التى يعتقدون أنها ممكنة الحدوث وهم أيضا لا يرفضون الاحداث الخارقة ، لكننا نحذر من اغراق الطفل فى الخيال الأمر الذى يبدد طاقته الواقعية ، ويجعله يحيا فى أحلام اليقظة ويهرب من مواجهة الواقع ، كما اننا ندفعه عن طريق الاغراق فى التصورات الى تحويل الخيال الى أكاذيب ، وقد يكذب الطفل ويكذب حتى يصدق نفسه حين يتجاوز سن الطفولة المبكرة (٢١) .

وختاما اذا كان معيار جودة القصة هو مناسبتها لغة ومضمونا واخراجا لأن يقبل عليها الأطفال ، وأن تقرأ بسهولة ويسر (٢٢) فان فى القصة الكثير من الايجابيات ، ومن ثم تؤدى دورها الكبير : امتاعا أو تسلية أو تثقيفا (٢٣) أو تربية بوجه عام ، فالقصة تأتى فى المقام الأول من أدب الأطفال ، وكلهم يميلون اليها ويتمتعون بها ويجذبهم ما فيها من أفكار وأخيلة وحوادث واذا أضيف الى هذا كله سرد جميل كانت القصة قطعة من الفن الحبيب الى الأطفال بل الى الكبار أيضا (٢٤) .

---

(٢١) عبد التواب يوسف وأدب الطفل العربى ـ مرجع سابق ـ ص٦٣

(٢٢) انظر : « اتجاهات قراءة القصص لدى الأطفال وعلاقتها بالانقرائية » بحث للدكتور حسن شحاتة ، نشر فى ثقافة الطفل ـ مرجع سابق ـ ع ٤ لسنة ١٩٨٩ ص ٧١ ـ ١١١ .

(٢٣) طرق تعليم اللغة العربية (٢) ـ مرجع سابق ـ ص٥٢ .

(٢٤) القصة فى التربية ، أصولها النفسية ، تطورها ، مادتها ، طريقة سردها ـ للدكتور عبدالعزيز عبدالمجيد ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧ ص٣ .

وعلى طريق اثراء القصة الطفولية ، فاننا نطرح بعض وجوه اشكالية هذه القصة فى موقفها من تعليم الأطفال وزيادة معارفهم ، وهذا الطرح ما نجد به القياس نفسه الأستاذ : عبد التواب يوسف لندوة الحياة اللندنية فى القاهرة(١) يقول : القصص أكبر من أن تكن وسيلة لتعليم الأطفال ، انها فن قائم بذاته مرتبط بالتراث وفلسفة الحياة ، ولابد من الحذر عند روايتها • القصص نبع رائع ينهل منه الأطفال الحياة نفسها بنماذجها البشرية ومعارفها ، وأرفض بشدة أن تكون مجرد اطار لمعلومات يمكننا أن نقدمها للأطفال بوسائل أخرى تعين عليها التكنولوجيا الحديثة ، القصة لم توجد للتعليم ، انها أدب وفن عظيمان ، ولا نظن أن نجيب محفوظ كتب رواياته وقصصه لكى نتعلم منها •

اعداد

دكتور/ عمر صالح شرف الدين

مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية